

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدِّينِيُّ

وَقَعَصَيْنِ

عبد الحميد جودة السحار

١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمْى عَنْ
ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ » .

(قرآن کریم)

انتصر الإمام عليٌّ في موقعةِ الجمل ، وقُتلَ طلحةُ
 والزُّبير ، وعادتْ عائشةُ إلى المدينةِ مُعَزَّزَةً مُكْرَّمَةً ،
 وبايعَ النَّاسُ عَلِيًّا ، فاجتمعَ له يَبَعَةٌ أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ ،
 وَأَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ ، وَأَهْلُ الْيَمَنِ ، وَأَهْلُ
 مِصْرَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَهْلُ الشَّامِ ، فَأُرْسِلَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ،
 الَّذِي كَانَ وَالِيَا عَلَى الشَّامِ مِنْ قِبَلِ عُثْمَانَ بْنِ
 عَفَّانَ ، كِتَابًا جَاءَ فِيهِ .

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

فَإِنَّ بَيْعَتِي بِالْمَدِينَةِ لِرِثْمِكَ وَأَنْتَ بِالشَّامِ ، لِأَنَّهُ
 بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ،
 عَلَى مَا بَايَعُوا عَلَيْهِ » .

وطلب منه أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ،
والأقائله حتى لا تتفرق كلمة المسلمين .

كان معاوية يطمع في الخلافة ، فرأى أن يستعين
بذوى الرأي في مناوأة علي ، فأرسل إلى عمرو بن
العاص ، فلما جاء إليه ، طلب منه أن ينضم إليه في
مناوأة علي ، فطلب عمرو منه أن يجعله والياً على
مصر ، فقبل معاوية ذلك ، فانضم عمرو إليه ،
وأخذوا يعملان على تأليب أهل الشام على أمير
المؤمنين .

أشار عمرو على معاوية أن يقنع شرحبيل ، رأس
أهل الشام ، أن علياً قتل عثمان ، فأرسل معاوية إلى
شرحبيل رجلاً يخبرونه أن علياً قتل عثمان بن
عفان ، فغضب شرحبيل ، وثارت نفسه ، وتيقن أن
الإمام قتل عثمان ، دون أن يفتن إلى أن معاوية هو
الذى دس هؤلاء الرجال ، ليقولوا له ذلك ، فرجع
شرحبيل إلى معاوية ، وقال له في انفعال :

— يا معاوية ، أُمِّي النَّاسُ إِلَّا أَنْ عَلِيًّا قَتَلَ عَثْمَانَ ،
وَوَالِدَهُ لَنْ يَبِيعَتْ لَهُ لُنُخْرَجَنَّكَ مِنَ الشَّامِ
أَوْ لَنَقْتُلَنَّكَ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :

— مَا كُنْتُ لِأُخَالِفَ عَلَيْكُمْ ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ
أَهْلِ الشَّامِ .

وَرَأَى شُرَحْبِيلُ يَسِيرُ فِي مَدَائِنِ الشَّامِ ، وَيُنَادِي
فِي النَّاسِ ، بِأَنْ عَلِيًّا قَتَلَ عَثْمَانَ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَطْلُبُوا بَدْمِهِ ، وَكَانَ يَقُومُ خَطِيئًا
فَيَقُولُ :

— يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ عَلِيًّا قَتَلَ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ،
وَقَدْ غَضِبَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلَهُمْ ، وَهَزَمَ الْجَمِيعَ ، وَغَلَبَ
عَلَى الْأَرْضِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّامُ ، وَهُوَ وَاضِعٌ سَيْفَهُ
عَلَى عَاتِقِهِ (عَلَى كَتِفِهِ) ثُمَّ خَائِضٌ بِهِ غِمَارَ الْمَوْتِ ،
حَتَّى يَأْتِيَكُمْ ، أَوْ يُحْدِثَ اللَّهُ أَمْرًا ، وَلَا نَجِدُ أَحَدًا
أَقْوَى عَلَى قِتَالِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ ، فَجِدُّوا وَانْهَضُوا .

وتأهب أهل الشام لقتال علي أمير المؤمنين ، ولم
يذُر برأس أحدهم أنَّ معاوية هو الذي حرَّكهم لقتال
الإمام ، لِيُثَبَّتَ مُلْكُهُ عَلَى الشَّامِ ، وَفَرَّتْ عَيْنُ مُعَاوِيَةَ
لَمَّا وَجَدَ جِيوشَ الشَّامِ رَهْنَ إِشَارَتِهِ .

٢

بلغ معاوية أنَّ عليًا سارَ بأهل العراق ، ونزل
بالنَّخِيلَةِ ، وَعَسَكَرَ بِهَا ، فَذَهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ ،
وَصَعِدَ إِلَى الْمِنْبَرِ ، وَكَانَ قَدْ أَلْبَسَهُ قَمِيصَ عُثْمَانَ
وَهُوَ مَخْضَبٌ بِالدَّمِ ، فَوَجَدَ حَوْلَهُ الشُّيُوخَ يَكُونُ ،
لَا تَجْفُ دُمُوعُهُمْ عَلَى عُثْمَانَ ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرِ ، فَقَالَ :
- يَا أَهْلَ الشَّامِ ، قَدْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَنِي فِي عَلِيٍّ ، وَقَدْ
اسْتَبَانَ لَكُمْ أَمْرُهُ . وَاللَّهِ مَا قَتَلَ خَلِيفَتَكُمْ غَيْرُهُ ،
وَهُوَ أَمْرٌ يَقْتُلُهُ ، وَأَلْبَسَ النَّاسَ عَلَيْهِ ، وَآوَى قَتْلَهُ ،

وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم ؛ يا أهل الشام ، اللّهُ اللّهُ في عثمان ، فأنا وليُّ عثمان ، وأحقُّ من طلب بدمه ، وقد جعل اللّهُ لوليِّ المظلوم سلطاناً ، فانصروا خليفَتكم المظلوم ، فقد صنع به القومُ ما تعلمون ، قتلوه ظلماً وبَغياً ، وقد أمرَ اللّهُ بقتالِ الفئَةِ الباغية ، حتى تَفِيءَ إلى أمرِ اللّهِ .

وسارَ الإمامُ في خمسينَ ومائةِ ألفٍ من أهلِ العراق ، وسارَ معاويةُ في نحوٍ من ذلك من أهلِ الشام ، وسبقَ معاويةُ عليّاً إلى صِفِّينَ : فنزلَ أهلُ الشامِ منزلاً اختاروه ، بحيث كان الماءُ في أيديهم ، وقد قرَّ رَأْيُهُم على أن يَمْنَعُوا أهلَ العراقِ الماءَ .

وبلغَ الإمامُ عليُّ صِفِّينَ ، ونزلَ بالقربِ من جيوشِ الشامِ ، وأرادَ رجالُه أن يشربوا ، فمَنَعَهُم أهلُ الشامِ ، فذهبوا إلى الإمامِ ، وأخبروه بذلك ،

فأرسل الإمام إلى معاوية رسولا يقول له : خل بين
الناس وبين الماء .

فقام معاوية في جيشه ، فقال :

- يا أهل الشام ، هذا والله أول الظفر (النصر) ،
لا سقاني الله وسقى أبا سفيان ، إن شربوا منه حتى
يقتلوا بأجمعهم عليه .

فقال رجل من أنصار الإمام له :

- يا أمير المؤمنين ، أئمنعنا القوم ماء الفرات وأنت
فيها ومعنا السيوف ؟

وهجم أهل العراق على أهل الشام ، فأزالوهم
عن الماء ، وأصبح الماء في أيدي أهل العراق ،
فقالوا :

- والله لا نسقيهم .

وبلغ ذلك الإمام ، فأرسل إلى رجاله يقول :

— خُذُوا مِنَ الْمَاءِ حَاجَتَكُمْ ، وَارْجِعُوا إِلَى
عَسْكَرِكُمْ ، وَخَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
نَصَرَكُمْ بِيْغِيهِمْ وَظَلَمَهُمْ .

منع معاويةَ عليًّا الماءَ لما كان الماءُ في يده ، ولكنَّ
عليًّا الرَّجُلَ الْكَرِيمَ ، قَدْ خَلَّى بَيْنَ أَعْدَائِهِ وَبَيْنَ الْمَاءِ ،
لَمَّا أَصْبَحَ الْمَاءُ فِي يَدِهِ ؛ فَمَا جَاءَ عَلِيٌّ إِلَى الشَّامِ لِيُقْتَلَ
النَّاسُ ، بَلْ جَاءَ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى
إِمَامٍ وَاحِدٍ ، حَتَّى لَا تَتَفَرَّقَ كَلِمَتُهُمْ وَيَذِبَ الضَّعْفُ
فِيهِمْ .

أشفق الجميعُ من الحرب ، وخرج قُرَاءُ أَهْلِ
العراق ، وقُرَاءُ أَهْلِ الشَّامِ ، وعسكروا نَاحِيَةَ
صِفِّينَ ، وذهب قُرَاءُ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا لَهُ :

— يَا مُعَاوِيَةَ ، مَا الَّذِي تَطْلُبُ ؟

— أَطْلُبُ بَدَمَ عِثْمَانَ .

— فَمَنْ تَطْلُبُ بَدَمَ عِثْمَانَ ؟

— مِنْ عَلِيٍّ .

— وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَهُ ؟

— نَعَمْ ، هُوَ قَتَلَهُ وَأَوْى قَاتِلِيهِ .

وَانصَرَفُوا مِنْ عِنْدِهِ ، فَدَخَلُوا عَلَى عَلِيٍّ ، فَقَالُوا :

— إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَزْعُمُ أَنَّكَ قَتَلْتَ عِثْمَانَ .

— اللَّهُمَّ يَكْذِبُ فِيمَا قَالَ .. لَمْ أَقْتُلْهُ .

واستمرت السفارات ثلاثة أشهر ، واستمر الإمام
بجادل رسل معاوية ، ليقنعهم أنه لم يأمر بقتل
عثمان ، ويدعوهم إلى كتاب الله عز وجل ، ولكن
رسل معاوية لم يقتنعوا ، وخرجوا من عنده وقد
عزموا على الحرب ، فقال الإمام :

— « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَى عَنْ
ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ » .

تَأْهَبُ الْجَيْشَانِ لِلْقِتَالِ ، ثُمَّ اخْتَلَطَ الرَّجَالُ ،
وَنَشِبَتِ الْحَرْبُ ، وَسَقَطَ الرَّجَالُ قَتْلَى ، فَقَامَ الْإِمَامُ
بَيْنَ الصَّفَيْنِ ثُمَّ نَادَى :

— يَا مُعَاوِيَةَ ! يَا مُعَاوِيَةَ !

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :

— اسْأَلُوهُ مَا شَأْنُهُ ؟

فَقَالَ عَلَى .

— أَحَبُّ أَنْ يَظْهَرَ لِي ، فَأَكَلِمَهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً .

فَخَرَجَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ مُعَاوِيَةُ وَمَعَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ،
فَلَمَّا قَارَبَا الْإِمَامَ ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى عَمْرُو ، وَقَالَ
لِمُعَاوِيَةَ :

— وَيَحْك ! عَلَامَ يَقْتُلُ النَّاسُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ،
وَيَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؟ اِبْرُزْ إِلَى فَاثِنَا قَتْلَ صَاحِبِهِ
فَالْأَمْرُ لَهُ .

فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص ، فقال :

— ما ترى يا أبا عبد الله ، أبارزه ؟

فقال عمرو في دهاء :

— لقد أنصفك الرجل .

فقال معاوية لعمرو :

— يا عمرو بن العاص ، ليس مثلي يُخدع عن

نفسه ، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط

إلا سقى الأرض بدمه .

خاف معاوية أن يبارز علياً ، فانصرف راجعاً دون

أن يتكلم ، وظلَّ يخرق صفوف جيشه وهو خائف ،

حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، فلما

رأى عليٌّ عليه السلام ذلك ضحك وعاد إلى

موقعه .

وزحف الناس بعضهم إلى بعض ، فارتَمَوْا بالنبل والحجارة ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسَّرت ، ثم مشى الناس بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض ، وراح الإمام يغوص في صفوف الشام ، يضرب بسيفه ، ثم يخرج به منحيا ، وفطن معاوية أنَّ عليًّا سينتصر عليه إذا استمر القتال ، فالتفت إلى عمرو بن العاص ، وقال :

— ما ترى ؟

فقال له عمرو :

— إنَّ رجالك لا يقومون لرجالِه ، ولست مثله . هو يقاتل على أمر ، وأنت تقاتل على غيره ؛ إنك تريد البقاء وهو يريدُ الفناء ، وأهلُ العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفِرَ بهم ، (لأنَّ عليًّا رجلٌ كريمٌ فلن يعذبهم) . ولكن ألقِ إليهم أمرًا إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردَّوه

اختلفوا ، أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم .

وربط معاوية وأهل الشام المصاحف على أطراف الرماح ، ورفعوها ، فنظر علي وأهل العراق ، فإذا بالمصاحف مرفوعة ، ثم قام رجال من أهل الشام ونادوا :

— يا معشر العرب ، الله الله في نسائكم وبناتكم ، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فيتم ؟ الله الله في دينكم . هذا كتاب الله بيننا وبينكم .

فقال علي :

— اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم ، إنك أنت الحكم الحق المبين .

لم يشأ علي أن يُخدع بخدعة ابن العاص ، أراد أن يقاتل معاوية ، حتى يتم له النصر ، ولكن جاءه زهاء

عشرين ألفاً من أهل العراقِ مقنَّعينَ في الحديد ،
 شاكي السلاح ، سيوفُهم على عواتقهم ، فقالوا له :
 - يا عليّ ، أجبِ القومَ إلى كتابِ الله إذا دُعيتَ
 إليه ، وإلا قتلناكَ كما قتلنا ابنَ عفَّان ، فوالله
 لنفعلنَّها إن لم تُجبهم .

وصاحَ صائحٌ ممَّن كانوا يروُّن استمرارَ القتال ،
 حتى يتمَّ النصرُ لعلی وأهلِ العراقِ :
 - خُذِعتُم والله فاختدعتُم ، ما أنتم برائين بعدها
 عزّاً أبداً .

فسبَّوه وسبَّهم ، فصاح بهم عليٌّ فكفَّوا ، ثم
 تصايح الراغبون في التحكيم :
 - إن عليّاً أميرَ المؤمنين قد رَضِيَ بِحُكْمِ القرآن .
 واضطُرَّ الإمامُ بعد أن اختلف أنصارُه أن يقبلَ
 التحكيم ، ونجحت خُدعةُ عمرو بنِ العاص .